الشخصية الصوفية في أدب الطاهر وطار رواية (الولي الطاهر) نموذجاً

آسيا محمد وداعة الله
[1]جامعة السودان للعلوم و التكنلوجيا – كلية اللغات

المستخلص :

تتلخص هذه الورقة في مقدمة عرفتُ فيها بالكاتب، إلى جانب عرض موجز للرواية موضوع الدراسة (الولي الطاهر) ، بينتُ بعده مفهومَي الشخصية و التصوف ثم تحدثت عن التصوف في الرواية، و الشخصية الروائية و مصادرها، مركزة على الشخصية الصوفية في الرواية، و بينتُ سماتها ، ثم طبقتُ السمات على بطل الرواية المدروسة، ناظرة في سماته السابقة و الحالية، و مظهره في الرواية، متوقفة عند التحول في شخصيته، باحثة عن الرمز السياسي والاجتماعي لشخصية الولي الطاهر (البطل)، ثم اختتمت الدراسة بما توصلت إليه من نتائج أهمها أن الشخصية الصوفية في أدب الطاهر وطارليست مقصودة لذاتها بل هي رمز، و أنها عنده تمتزج بالتاريخ و الأسطورة.

كلمات مفتاحية: *الحالة– القناديز– المقام*

ABSTRACT :

This paper briefly introduces the writer, besides a concise depiction of the novel under investigation (Immaculate Saint). Then, I explained both the concept of character and mysticism; mysticism as manifested in the novel. As well as the novelistic character and its sources, focusing on the mystical character and its traits in the novel. Then, I applied these traits to the hero of the investigated novel – denoting his previous and current characteristics, beside his appearance in the novel as well as the shift in his character, searching for the political social symbol for the character of the immaculate saint. I concluded with some results such as: the mystic character in this novel is not exclusive to it but as a symbol and hence intermix with history and legends.

أسئلة الدراسة:

1- من يكون الولي الطاهر؟

2- لماذا وصفه الكاتب بالولاية و الطهر من غير أن يسمه ؟

3- ما الرمز المراد التعبير عنه من خلال تناقضات شخصية الولي الطاهر؟

كلمة لا بد منها:

قبيل الدخول في ثنايا هذه الدراسة، لابد لي من أن أقدم للقارئ ملخصا موجزاً عن رواية (الولي الطاهر) للروائي الجزائري الشهير الطاهر وطار 1934-2011م، الذي ينحدرمن أسرة ريفية بربرية، تعيش في إحدى قرى سفوح جبال الأوراس، ورث عن أسرته الأنفة والكرم والتواضع، تلقى تعليماً دينياً في مدارس جمعية العلماء المسلمين، أكمله في معهد الإمام عبد الحميد بن باديس، انتقل عام 1956م إلى تونس، ثقف نفسه أدبياً ، راسل جهات ثقافية وعلمية مصرية، اعتنق الفكر الماركسي، انتمى لجبهة التحريرالوطني، عمل بالصحافة، ألف عدداً من الروايات جعلته قامة تأسيسية من قامات الرواية المكتوبة باللغة العربية في الجزائر، كتب رواياته عن وعي و إدراك تام للعلاقة ما بين اللغة و الوطن و الهوية و القومية.

ألفت رواية (الولي الطاهر)عام 1999م، و صدرت منها طبعة عن منشورات الجمل بألمانيا عام 2003م، و هي الطبعة التي اعتمدتها الدراسة، تقع الرواية في 143 صفحة من الحجم المتوسط، تحتوي على 23 جزءاً، بعضها يحمل عناوين، و بعضها الآخر يحمل أرقاماً متسلسلة، يطول بعض أجزاء الرواية فيبلغ قرابة العشرين صفحة، بينما يقصر غيره فلا يتعدي طوله ثمانية الأسطر .

تتلخص الرواية في أن بطلها المتصوف– الولي الطاهر– يتجه ممتطياً ظهرأتانه العضباء– المشقوقة الأذنين– عائداً صوب مقامه الزكي، آتياً من حيث لا يعلم هو ولا القارئ، والمقام الزكي مبْنى مكون من سبعة طوابق، شيده الولي– في وقت ما– في قلب الفيف، يقيم فيه مئتا شاب طالب(قناديز) مع الولي الطاهر، و مثل عددهم من الإناث، إلى جانب المقدم، و الموالي، و عدد من الأساتذة (الشيوخ) الذين يعلمونهم، وجميع هؤلاء فارين بدينهم من وباء أصاب المسلمين، وفي طريق عودته تنتاب الولي حالات صوفية تخرجه عن وعيه، تحدث من خلالها كل أحداث الرواية .

بدأت الرواية بعبارة دالة على سعادة الولي الطاهر و فرحه بالوصول إلى أرضهم،"بحول الله وحمده ها نحن من جديد، نرجع إلى أرضنا"(الولي الطاهر،11،2003)1 مما يوحي بقرب الوصول لمقامه المنشود، ثم يتوقف به الزمان، ويتكثف المكان تعدداً وتنوعاً، فيظل يدور حيث هو؛ حتى نهاية الرواية و لما يصل لمقامه المنشود.

تستند الرواية على حدث شهير في التاريخ الإسلامي، يتمثل في قتل سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه لمالك بن نويرة؛ في حروب الردة، واختلاف رأْيي أبي بكر وعمر بشأن الحادثة، حيث أن مالكاً نطق بالشهادة قبيل قتله، و لم يُصدّقه خالدٌ فقتله، و رأى عمر إقامة الحدعلى خالد، بينما رأى أبو بكر خلاف ذلك ؛ إذ أن خالداً قد تأول فأخطأ (الولي الطاهر،2003، 8،9،44)2 ، و للكاتب علل عديدة في توظيف هذا الحدث .

و بما أن الرواية قد ارتبطت بالتطور الحضاري و تحولاته المختلفة، وعبرت عن الواقع بمختلف مظاهره، فإن وطار في روايته " الولي الطاهر" هدف لمعالجة مرحلة حساسة من المراحل التي عاشتها الجزائر في تسعينيات القرن الماضي، وهي مرحلة انعدام الأمن، و كثرة التقتيل ، و الاضطرابات التي أعقبت إلغاء الانتخابات الجزائرية في عام 1991م .

وضع الكاتب لروايته– إلى جانب العتبات المتعارف عليها– عتبة المقدمة التي عنونها ب(كلمة لابد منها)، قال في صدرها أنه تحتم عليه اللجوء إلى هذه الكلمة، بالرغم من أنه لا صلة لها بالعمل الفني، والإبداعي، و قد وجهها للنقاد أولاً ثم القراء، فكأنه أراد بها توجيههم و وضعهم ضمن السياق الذي يريده للرواية، أو أنه حاول من خلالها تبرير ما ظن أن النقاد والقراء لا يقبلونه أو لا يروقهم،علماً بأن الرجل نالته سياط النقد القاسية في جل أعماله الروائية السابقة لهذه الرواية .

تناولت الرواية بمزيج من التجريد و السريالية و الواقعية – على حد قول مؤلفها– موضوع " حركة النهضة الإسلامية بكل تجاويفها و بكل اتجاهاتها، و أساليبها "(الولي الطاهر،7،2003)3 محاولة معالجة الظروف الآيديولوجية السائدة في الجزائر في العقد الأخير من القرن العشرين بطريق مباشر و غير مباشر

مفهوم الشخصية:

قال ابن منظور في اللسان في مادة (شخص) أن الشخص هو شخص الإنسان و غيره، مذكر، و الجمع أشخاص و شخوص و شخاص، و الشخص سواد الإنسان و غيره، ما تراه من بعيد ، و يقال رجل شخيص إذا كان سيداً (ابن منظور، اللسان،1994 ،مادة شخص)4.

مفهوم التصوف :

التصوف والصوفية من التزهد و لبس الصوف ، و هو مصطلح ظهر أول مرة حسب الوثائق المعروفة عام 776 م، و نسب لمتزهد عراقي، و يدل المصطلح في الكوفة و بغداد على جماعة الزهاد و المتصوف الذين اشتهروا بالتقشف (شوفلى،التصوف و المتصوفة،ت ع قنيتي،1999، 7)5.

التصوف في الرواية:

يميل كثير من الروائيين إلى استخدام النموذج الصوفي في الرواية لما له من قيمة تاريخية وأخلاقية تشكل عبرة و نمطاً سلوكياً مفتقداً في حاضرنا، و قد يدلف التراث الصوفي للرواية غالباً بفعل الأسطرة، حيث يتحرر الروائي من الزمن التاريخي للأحداث، و الزمن الفردي للأشخاص، فيجري أحداث الرواية في زمن أسطوري غير منطقي، زمن لا يتمتع لا بالديمومة، و لا التكرار؛ وهو زمن ينعدم إلا في مخيلة الصوفي الفاعل في الرواية، وحتي عنده؛ لا يوجد إلا في اللحظات التي تنتابه فيها (الحالات) و يشطح، فيتخذ الكاتب هذه اللحظات مبرراً لانديا ح الخيال و إدخال التراث الصوفي إلى الرواية .

والحالات جمع، و الحالة عند المتصوفة هي" ما يحل بالأسرارمن صفاء الأذكار و لا يزول"(الطوسي،411)6 ، و هي " معنى يرد على القلب من غير تعمد، و لا اجتلاب و لا اكتساب، من طرب، أو حزن، أو قبض، أو شوق، أو انزعاج، أو هيبة، أواحتياج، فالأحوال عندهم مواهب، و المقامات مكاسب، و الأحوال تأتي من غير الوجود، و المقامات تأتي ببذل المجهود ... و الأحوال كاسمها ... كما تحل بالقلب تزول" (القشيري، الرسالة، تح زريق،ابوالخير،53،1995)7 أما المقامات (المكاسب) المشار إليها في التعريف السابق فيعنى بها الرتب ، و الأقدار(جمع قدْر) و مكانة المتصوف بين المتصوفة هي قدْره و رتبته و مقامه بينهم، وهي تحُرز و تنشأ عن شدة الاجتهاد في العبادة، و صدق النية عند العابد، و هي التي أشارت لها الآية الكريمة " و ما منّا إلا له مقام معلوم "(الصافات،الآية164) **8** و هي بهذا المعنى تستعمل في الحياة و في الرواية، مع ملاظة أنه لا علاقة للمقام المذكورآنفاً بمقام الولي الطاهر؛الذي يسعى للعودة إليه، فمقامه مكان مادي بُني بهدف الإقامة فيه، و اتخِذ ملجأ فرّ إليه الهاربين بدينهم من وباء يصرف من يصيبه عن جوهر العقيدة " يصيب المؤمن في قلبه، فيضحي، و دونما إعلان عن ذلك، أو إحساس به، لا هو بالمسلم و لا بالكافر، قد يصلي اليوم، و قد لا يصلي غداً، بل قد يقطع صلاته، و يسرع إلى خمارة من الخمارات التي انتشرت في كل ركن، يديرها مسلمون ..."(الولي الطاهر،2003، 20)9 .

دخل التصوف إلى النصوص الروائية على الرغم من الاختلاف الكبير بين مفهومي التجربتين الصوفية و الروائية؛ إلا أن كليهما تسعى للوصول لحقيقة ما؛ تتصل بالذات الإنسانية، فالتجربة الصوفية تحوي إحساساً إنسانياً يكشف عن معاناة الذات البشرية المتعطشة إلى الارتواء من ذات المحبوب، بينما التجربة الروائية تحاول رصد حقيقة الذات الإنسانية في الوجود و مساراتها ما بين الواقع و الحلم، و الميول و الرغبات، و عليه فكلاهما َمعْني بالإنسانية و

همومها، يحاول تخفيفها قدر الإمكان، لذا جاء توظيف التجربة الصوفية في النصوص الروائية مبرراً، يحمل في ثناياه المعرفة الروحية من جانب رمزي، فيفتح أمام القارئ أبواباً من الوعي الثقافي و الفكري، و يلجأ بعض الروائيين إلى استعمال النموذج البشري الصوفي، فيكون بطل الرواية من المتصوفة، كما في الرواية التي نحن بصددها، أو تكون شخصيات الرواية تربطها علاقة ما بالمتصوفة، فتظهر هذه العلاقة في أحداث الرواية، أو في لغتها، أو فضائها،و اللجوء إلى التراث الصوفي باعتباره ممارسة إبداعية ؛ يمثل مظهراً من مظاهر الحداثة و التجديد في الرواية العربية الجديدة .

الشخصية الروائية :

و الشخصية Character يعنى بها أحد الأفراد الخياليين أو الواقعيين الذين تدورحولهم أحداث القصة أوالمسرحية (وهبة،المهندس،دت،108)10، وعند أليزابيث بوين: الشخصية عنصر كبيرالأهمية في القص بعامة وفي الرواية بخاصة، حتى أن سراهتمام القراء برواية ما غالباً ما يكمن في قدرة شخصياتها على جذبهم بتألقها (نقلاًعن: سماحة،رسم الشخصيات في روايات حنا مينة،19،1999)11. الشخصية الروائية هي عنصر رئيس يحدد الكاتب من خلاله فحوى روايته، وهي كائن خيالي يختلف عن شخصيات الواقع، وشخصيات التاريخ، فالقارئ يعرفها أكثرمما الشخصيات الواقعية والتاريخية؛ وذلك لوجود جوانب غامضة في كل من الشخصية الإنسانية والتاريخية؛ لا يدركها المتلقي؛ بينما الشخصية الروائية واضحة مكشوفة؛ و توحي للمتلقي بإمكانية معرفة ما يشاء معرفته عنها، ومن ثم يأنس إليها لاستشعاره القرب منها، و لأن سلوكها دوماً معلل في نظره؛ مما يبعده عن التوتر النفسي الناشئ عن البحث في مسببات الأشياء وعللها، ذلك لأن استبطان الكاتب لوعي شخصياته يجعلها تشف عما في نفوسها، فيصبح كل ما يأتي منها متوقعاً (انظرهلال،النقد الأدبي الحديث،564،1996)12.

مصادر الشخصية الروائية:

تعتبر الشخصية من الأجزاء الرئيسة في الرواية، إذ يعتمد عليها الكاتب في حمل و نشر وجهة نظره، كما يعتمد عليها في تشكيل البناء القصصي و قيام عناصره المختلفة، لذا نجد الكتاب يعنون كثيراً ببناء الشخصية الروائية، و يحرصون على جلبها من مصادر مناسبة حتى تسهم في خدمة العمل الروائي و مغزاه، و يمنح الكتاب شخصياتهم السمات الواقعية الملائمة للبيئة والفضاء القصصي، مما يضمن لها البقاء عالقة بأذهان القراء، وأهم المصادرالتي يلجأ إليها الكتاب لجلب الشخصيات هي :

1-الخيال المحض، و هنا يعتمد الكاتب على ما تراكم في عقله الباطن من صور، فيستدعي أنسبها للقيام بالدور المتخيل في النص .

2-الواقع و الحياة اليومية- الماضية أو الحاضرة - و هنا يلتقط الكاتب شخصية حياتية واقعية رآها أو سمع عنها، وعرف سماتها، فيعمد إلى تشذيب أطرافها، و تعديل شكلها و تحجيمها بحيث تناسب الدور و القالب الروائي الذي تخيلها من خلاله .

3-التاريخ، و هنا يختار الكاتب شخصية تاريخية؛ فيوظفها في عمله الروائي معتمداً على كل؛ أو بعض سماتها التاريخية المعروفة، و ليس على الكاتب في هذه الحالة التزام الحقائق والأحداث التاريخية المتصلة بالشخصة بدقة تامة إذ يمكنه استخدام خياله فيفرغ الشخصية من محتواها المعروف تاريخياً كلياً أو جزئياً، و يوظفها في نصه الروائي حسب طبيعة النص .

4-المزج بين الخيال والواقع، و يلجأ إليه بعض الكتاب، فيجعلون أصل الشخصية واقعياً، ثم يعمدون إلى سماتها الواقعية فيغيرونها بتضخيمها أو إضعافها؛ محدثين في مظهرها أثراً سلبياً أو إيجابياً؛ حسب الدور الذي ينوي الكاتب تحميلها إياه في الرواية، ثم يلقي بما تبقى منها؛ أو ما آلت إليه في أتون النص الروائي، فتبدو فانتازية أكثر منها خيالية أو واقعية .

و أياً كان نمط الشخصية الروائية و مصدرها، فلابد للكاتب أن يمنحها ماضياً -تراثاً إنسانياً - يكون هو النافذة التي تدخل منها إلى عالم الواقع، و تستطيع أن تنسج- داخل إطاره - أفعالها الروائية المناسبة منطقياً لمن هم في ظرفها الواقعي. و ربما أخذ الروائي بعض شخصياته الروائية من واقعه وعصره و حملها أبعاداً تراثية إنسانية من التاريخ أو الأساطير، أو التصوف الذي يعد جزءاً مهماً و مثيراً للانتباه في التراث العربي الإسلامي، و عليه فلا غرابة أن نجد الشخصية الروائية صوفية في أصل تكوينها منذ إعدادها، والبعد الصوفي في هذه الحالة هو أمر مقصود لغرض فني في الرواية .

الشخصية الروائية الصوفية :

و الشخصية الروائية؛ المأخوذة من المصدر الصوفي، تنال مكاناً مرموقاً في نفس القارئ العربي؛ يشابه مكانة المتصوف الحقيقي في نفسه؛ لذا تكتنفها دائماً هالة من التبجيل والاحترام، فلا تتحدث بطريقة غيرها من الشخصيات الواقعية، إذ أن سمت المتصوفة يفرض عليها أسلوباً خاصاً في الحديث والصمت، وخطاباً ينطوي على رسالة اجتماعية؛ تختلف عن الرسائل المبثوثة عبرخطابات الآخرين، و الخطاب الصوفي ينبني - أصلاً - على لغة المتصوفة المتوافقة مع مواجدهم الداخلية، المغايرة للغة غيرهم، وهو خطاب يخلو من ميزة التواصل السهل مع الآخر، إذ يصعب فتحه على المتلقي نظراً لما يحتويه من إشارات و رموز يصعب فكها و معرفة مقاصدها، إلا إذا كان المتلقي ذا دراية بالمعجم الصوفي تمكنه من استكناه مرامي وأقوال المتصوفة .

سمات الشخصية الصوفية في الرواية:

1-القوة - فعل الأفعال الخارقة -:

لعل من أبرزسمات الشخصية الصوفية في الرواية قوتها غير المحدودة، و قيامها بالأفعال الخارقة(الكرامات) و إن كان الفعل الخارق في الرواية قد تؤديه شخصة غير صوفية، تكون مثلاً شخصية أسطورية، أو شخصية خيالية أو خرافية أو شعبية وغيرها، لكنه مع أي منها لا يكون كرامة، فالكرامة خاصة بالمتصوف، فإن كانت الشخصية الروائية صوفية على الروائي ان ينقب في التراث بحثاً عن ملامح القوة الخارقة ليمنحها إياها باعتبارها كرامة؛ واقعية كانت هذه الشخصية ام خيالية، فإن وجدها وظفها، وإن لم يجدها تخيلها و نسبها للشخصية الصوفية لأنها تضفي عليها سمت البطولة، كما تتيح للروائي استلهام الحدث الصوفي والإفادة منه إلى جانب الشخصية، و معهما تصيراللغة الصوفية - الغامضة - ضرورة فنية لا بد منها، وهذا ما فعله جمال الغيطاني في التجليات مع شخصية ابن عربي،القادر على تمزيق وجمع الجسد البشري في مشهد أخذه من السيرة النبوية لابن هشام:" فبينا أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بهماً لنا ،إذ أتاني رجلان عليهما ثيابٌ بيض بطست من ذهب مملوءة ثلجاً، ثم أخذاني فشقا بطني، استخرجا قلبي، فشقاه فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها، ثم غسلا قلبي و بطني بذلك الثلج حتى أنقياه"(ابن هشام، السيرة، تح أحمد جاد،141،2003)13.

2- المثالية و الترفع عن الصغائر:

من سمات المتصوف المثالية والترفع عن الصغائر، والانشغال بهموم المجتمع من حوله، فلا يُرى بين العامة و الدهما يقول أقوالهم و يفعل أفعالهم، و لا يُرى مشغولاً بتوافه الأمور و سفاسفها مما يشغل العوام، بل هو دائماً مشغول بعبادته و أذكاره، و المحافظة على القيم الأنماط الأخلاقية والاقتصادية وأحياناً السياسية للمجتمع سعياً وراء المصلحة العامة و رفعة المجتمع .

3- السمت المهيب:

أعني بالسمت المهيب:الوقار،الذي يعد من السمات المهمة و المميزة للشخصية الصوفية، إذ يمنحها – الوقار – إحترام المحيطين بها؛ و يوجب عليهم إكرامها، و النظر إليها بإكبار و تجلة يلازمهما إبداء مظاهر الولاء و الطاعة في الحضور و الغياب .

4-التقوى و الورع:

و آخر سمات الشخصية الصوفية التي أود الإشارة إليها في هذا المقام، هي التقوى و الورع ، و هما من لوازم المتصوف في كل حركاته و سكناته، إذ هما سر ما يجده من تقدير و احترام المجتمع له .

الولي الطاهر شخصية صوفية بامتياز:

لو القينا نظرة عامة؛ على السمات سالفة الذكر محاولين معرفة مدى انطباقها على شخصية الولي الطاهر بطل الرواية موضوع الدراسة، لوجدناها تنطبق عليه تمام الانطباق، فمثلاً : القوة الخارقة يمثلها ملمح بطولي خارق للولي الطاهر في إحدى حالاته، قال الراوي:" وجد الولي الطاهر في نفسه قوة خارقة، فكان وحده يقوم مقام عشرة محاربين أشداء، مما جعله محط أنظارالجميع"(الولي الطاهر2003 ،31)14، وإتيان الأفعال الخارقة، سمة حرص وطارعلى إثباتها للولي الطاهرفي أكثر من موقف، ومن ذلك حديث الولي الطاهرعن نفسه قائلاً" أعلو فأعلو، إنني أعلو إلى السماء فلا تقابلني إلا السطوح"(الولي الطاهر،16،2003)15 و كذلك قوله :" كانت كرامتي هذا البناء الشامخ، أمام عجز القوم عن شق الرمل بالعربات، فتعذرإيصال مواد البناء، فكانت صرخة مدوية مني، استغرقت سبعين يوماً ، كان على أثرها البنيان قائماً " (الولي الطاهر،49،2003)16، و في موقف مماثل إبان تيهه في الفيف، يخبرنا الراوي أن الولي صلى ركعتين، ثم " لبث لحظات طويلة يدعو في سره، عند فراغه من الدعاء تقدمت العضباء حتى بلغت موقع صلاته، انحنت و راحت تشرب ماء زلالاً، نزع الولي الطاهر بعض ثيابه ثم غطس في بركة الماء، كان جسده مثخناً بالجروح ... مرر مع ذلك الماء على كامل جسده... حتى أحس بها تندمل "(الولي الطاهر،2003، 5)17، و في هذا الجزء تكاثفت الأفعال الخارقة، نرصدها فيما يلي: دعا الرجل ربه في سره فانفجر لماء، و ئكاثر الماء حتى صار بركة، غطس في الماء و مرر بيده فاندملت جراحه!!، و ليس هذا فحسب، بل أن الكاتب يريد أن يقول أن ما يراه الولي الطاهر في (حالاته) هو حقائق لا جدال فيها؛ و الدليل أن الولي الطاهر قد خاض الولي المعركة في الحالة و لما استيقظ كان جسده مثخناً بالجراح! .

وأما المثالية و الترفع عن الصغائر، فنمثل لها بموقف الولي الطاهر مع البنت الزائدة على المأتين و هي تنظر إليه بشغف، أما هو فقد " كان يتحاشى النظر إليها، كانت تتأمله... أضاف، ثم قال في إلحاح، و قد لعن الشيطان الرجيم: لنفرغ من المسألة..."(الولي الطاهر،2003 ،66،67)18، و هذه قمة المثالية لرجل منفرد مع فتاة تشعره بأنها ترغب فيه .

والسمت المهيب عادة يرتبط بالسلوكيات و ينشأ عن المكانة الدينية و العلمية للشخص، و نجد هذا في شخصية الولي الطاهر عندما سمع صوتاً، فسأل المقدم إن كان قد سمع الصوت، فكان رد المقدم أن" انحنى معتذراً: العفو يا مولانا الولي الطاهر، لا كرامة إلا لأولياء الله الطاهرين"(الولي الطاهر،2003، 64).19 . و يتبدى السمت المهيب؛ في قول البنت للولي الطاهر:" نراك في الظلمة يا مولانا جسداً نورانياً، كما أنت الآن..." (الولي الطاهر،2003، 67)20، و في موقف آخر يصف الراوي الولي بأنه" عاري الرأس...وسط الهالة النورانية التي تستره"(الولي الطاهر،2003، 74)21 .

و أما التقوى و الورع؛ فقد جعلهما الكاتب تلازمان الولي الطاهر على امتداد الرواية؛ في كل حركاته و سكناته، و من ذلك أنه في بداية الرواية لما وجد نفسه قد وصل إلى أرضه، كان أول فعله الحمد و الشكر لله على نعمة بلوغ الأرض، و إن لم يبلغ المقام بعد، ثم قراره أن يصلي ركعتين كدلالة على التقى،(الولي الطاهر، 2003، 11)22 و ليس أدل على ورعه من موقفه مع بلارة التي كانت شبه عارية عندما" ارتمت في أحضانه...غضة لدنة دافئة..."(الولي الطاهر،2003، 84)23 ، و هو يدفعها إلى الخلف بقوة ، و يصر على قتلها تطهيراً لمقامه الزكي منها .

و قبل أن نناقش سمات شخصية الولي الطاهر في مرحلتي وجوده المفترض، نشير إلى أن الرواية تقوم على شخصية واحدة رئيسة هي شخصية (الولي الطاهر) التي تمثل نواة تدور حولها احداث و شخصيات الرواية، و هذا النمط من الشخصيات هو ما يسميه واسيني الأعرج " بالشخصية الجذع " و هو تشبيه مناسب إذ أنها الجذع الذي تستند عليه الشجرة الروائية و تتفرع عنه(الأعرج، واسيني،الطاهروطار،تجربة الكتابة الواقعية في الجزائر، دراسة نقدية،1989، 50) 24.

السمات السابقة للولي الطاهر(ما قبل فعل الكتابة):

ننظر في هذا الجزء في سمات الولي الطاهر التي كانت تميزه قبل تيهه الذي يكتنفه الآن، أي صفاته قبل اللقاء ببلارة، و ما نجم عن ذلك اللقاء، من فقدان للذاكرة و ما تبعه من تيه و مشاركة –غير مبررة– في الحروب، و ذلك ما تكشفه لغة الرواية في بعض المواقف التي يبرر بها الولي أشياء تذكرحدوثها؛ فندرك أنه كان في السابق مسلم مستق يم، فعّال في مجتمعه ، مفكر في محيطه ، جادٌ في مواقفه، يحارب في سبيل الدفاع عن قناعاته، و قد نجاه الله من الوباء الذي أصاب المسلمين، وسريان عدوى الفسق و الفجور بينهم كالجرب، فصاروا يفعلون ما يخالف الإسلام غير آبهين بتعاليمه، التي ينافح عنها الولي الطاهروأمثاله، بينما البقية في الضلال و التيه ، "لا أحد أعلن عن بقائه على إسلامه، ولا أحد أعلن عن خروجه منه،وعن ملته الجديدة" (الولي الطاهر،2003، 21) 25 ،أما الولي الطاهرفناهض الوباء محاولاً إزالة المنكر باللسان و اليد، حتى يئس من شفاء الأمة فقرر إنقاذ ما يمكن إنقاذه "عندما دب اليأس بعد محاولات متواصلة، بلغت حد المواجهات المسلحة، و الحروب الطاحنة، ما تزال تتواصل، ارتأيت أن الهروب بدين الله عنصر مهم في المواجهة، نقيم في هذا الفيف نتضرع للمولى، عساه يفرج الكرب..."(الولي الطاهر،21،2003)26.

و الولي بلا شك كان معروفاً بالتدين والصلاح قبل بناء المقام و الاستقرار فيه، بدليل مساعدة بعضهم له في إقامة المقام، و تأسيس الخلوة" أسسها عباد الرحمن هاربين بدين الله عندما انتشر وباء خطير، يصيب المؤمن في قلبه "(الولي الطاهر،2003، 20)27 .

و تبين أحداث الرواية أنه كان يتصف بالولاية و التقى، يدلنا على هذا وجود أربعمائة من الشباب من الجنسين، وأساتذتهم تحت إمرته، وفي كنفه في مقامه الزكي، وجميعهم كانوا يحترمونه، ويطيعونه، و يتلطفون في مخاطبته" رفع إلّي المقدم تقريراً مطولاً، يشكو فيه من أعراض يخشى أن تكون بداية للوباء الذي هربنا منه، يا جناب الولي الطاهر يا مولانا..."(الولي الطاهر،2003 ،44)28.

السمات الحالية للولي الطاهر:

نعني بها سمات الولي الطاهر إبان فعل الكتابة ، و هي السمات التي تظهر من خلال كلام الراوي المصاحب للولي، أو التي نستشفها مما يرويه الولي الطاهر نفسه في شكل منلوج داخلي، مستعملاً فيه ضمير المتكلم، حيث أن المتحدث الحقيقي هو الكاتب على لسان البطل، وقد تسند عملية السرد إلى الراوي، أو تكون على لسان بعض الشخصيات الثانوية، وهي أبسط طريقة لعرض حوادث القصة وتطويرها(إيفيلين،جورج، نجيب محفوظ والقصة القصيرة،11،1988-16)29. حيث نراه يركب العضباء يعبر الفيف جيئة و ذهاباً ضائعاً، يبحث عن مقامه، حيث البيئة العلمية والفكرية و الاجتماعية التي أقامها بإرادته يوماً ما، ثم ضاع عنها أو ضاعت عنه .

و مع ذلك فالولي الطاهر- البطل الصوفي - يمثل شخصية محورية؛ تعمل على استيعاب حركية الرواية بجميع متناقضاتها، شحنها الكاتب بكل التناقضات، ومنحها تعددية الوجوه، فمرة هي بطل صوفي، و أخرى هي مسلم تائه، و ثالثة نجدها في هيئة إرهابي يقتل الناس بلا ذنب" كل من يقدم أصلوه ناراً، المنافذ الأخرى للحي سدوها بكل الوسائل، لا داخل و لا خارج، و لا حي في الحي... لا تبقوا على من جرت عليه الموسى و لا من لم تجر عليه " (الولي الطاهر،2003 ،92)30، وتعدد وجوه البطل أمر اقتضته منزلته في الرواية إذ هو البطل الأوحد ، من وجوه متعددة .

و في الوقت ذاته يعيش البطل حالة من الفوضى، و القتل العبثي غير المبرر منطقياً، يماثل ما آل إليه حال الجزائر؛ و غيرها من بقاع العالم الإسلامي، و دخول الولي الطاهر في نفق الحروب المظلم- برغم ورعه المفترض- سببه سوء التخطيط، و الجهل بالأحكام الدينية الصحيحة لفض النزاعات السياسية، إلى جانب التسرع في إصدار الأحكام، و اتخاذ السلاح وسيلة وحيدة وابتدائية لإسكات الخصم، و العجز عن استغلال الفرص التي تسنح من قبل الطرف الآخر، ثم الندم على ضياعها، و من ذلك قول بلارة للولي " أريد أن أعيش معك حالة..."(الولي الطاهر،2003 ،77)31 و لم يقبل الولي العرض، فكان التيه و ما نتج عنه .

و علة كثرة القتل هي بُعد الناس عن الدين وعدم مبالاتهم بعقاب الله، و هنا نجد مقارنة مقصودة؛ بين القتل المبرردينياً و أخلاقياً في السابق، و بين القتل العبثي غير المبررفي الحاضر العربي و الإسلامي بعامة، و في الجزائري بخاصة، من خلال استخدام نموذج قتل خالد بن الوليد لمالك بن نويرة، و ما كان بعد القتل من اختلاف الرأيين الذي سبقت الإشارة إليه،(الولي الطاهر،2003 ،44) 32، و إن كنت أرى أن وطار قد وظف هذه الحادثة في هذه الرواية بأكثرمن طريقة، بعضها إيجابي و جلها سلبي، و لهذا أشار في مقدمة روايته " إن الفنان فّي يقرأ التاريخ ومضة، بل " حالة" ..." (الولي الطاهر،2003 ،9) 33. و إلى هذا أشار الكاتب عندما قال: " أن القتل في التاريخ العربي يواجه بفتاوى مختلفة؛ تتبع من تكييف المجتهد للحادثة، و أتكأتُ في الرواية على هذا البعد التاريخي لأعرج على القتل في الزمن الراهن"(عياش،يحياوي، حوار مع الروائي الطاهر وطار، مجلة التبيين، 2000، 85)34.

من خلال قراءاتي المتكررة و المتأنية للرواية، استطيع القول بأن شخصية الولي الطاهر مع تعدد حالاتها فهي شخصية عجائبية، أو قل رمزية، فأما العجائبي فكونها قادرة على اختراق الزمان والمكان، وقادرةعلى الفاعلية في الزمن الماضي بسماتها الحاضرة، أو بتقمصها لسمات شخصيات تاريخية معروفة في مشاهد معلومة من التاريخ، و من ذلك تقمص الولي الطاهر لشخصية سالم مولى أبي حذيفة، الذي حمل راية المسلمين في معركة اليمامة بعد مقتل زيد بن الخطاب رضي الله عنهما " ظل زيد بن الخطاب ينادي، وراية خالد بين يديه: أما الرجال فما الرجال...اللهم إني أعتذر إليك من فرار أصحابي، و أبرأ إليك مما جاء به مسيلمة، و محكم بن الطفيل، كان يتقدم بالراية... و يضارب حتى قُتل رحمه الله، اختطفتُ راية خالد، و هتف فيّ المسلمون: يا سالم، إنا نخاف أن نؤتى من قبلك " بئس حامل القرآن أنا إذن إن أتيتم من قبلي" قلتُ "(الولي الطاهر،2003 ،40)35. و هنا نراه يتقمص شخصية سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه، و في مكان آخر من الرواية تقمص شخصية محمد بن عبد الوهاب.

و كذلك من العجائبي في شخصية الولي الطاهر، علاقته الغريبة بالعضباء، أتانه التي يمتطيها باحثاً عن مقامه الزكي، و التي ترافقه منذ أمد غير معروف، حتى أنهما ارتبطا ببعضهما البعض في وعي الناس"...لا يمكن أبداً الفصل بين العضباء و بين صاحبها سيدي الولي الطاهر، قال الأولون الذين رأوهما، كما قال الآخرون الذين لمحوهما، أو بلغهم أمرهما، والمؤكد لدى الأولين والأخيرين من الأتباع، أن العضباء إحدى كرامات الولي الطاهر، و إحدى معجزات و خوارق هذا الزمن " (الولي الطاهر،2003 ،14)36.

و أما الرمزي في شخصية الولي الطاهر فمنه كون طريق عودته مفتوح لانهائياً، يمثل بوابة يدلف عابرها في متاهات الزمان و المكان، سيما و أن "الشمس قد ذهلت و فقدت اتجاهها "(الولي الطاهر،2003 ،15)37، و ظلت واقفة طويلاً في مشهد زماني سرمدي يرمز لوقوف عجلة النمو والتطور في البلاد العربية والإسلامية، حتى أن توهج ضوء الشمس و قوته لم يبين للأمة مسارها في دروب التقدم، فاصطلت بحرارة التخلف و الفرقة في حروبها الداخلية، و لم تجد الظل الذي مده الله، لأنها لم تفعل شيئاً سوى الانتظار" ظل الولي الطاهر يرفع كفيه يتضرع إلى الله ساعات طويلة، لا يتوقف إلا ليلقي نظرة جانبية، لعل الشمس تحركت فمد الله الظل" (الولي الطاهر،2003 ،12)38، إذن فالولى الطاهررمز للأمة الإسلامية التي أضاعت ماضيها الزكي، و أرادت العودة إليه، من خلال تنظيمات و حركات، حملت راية الإسلام و شعاراته، لكنها لم تضع خطة مدروسة تحقق بها أهدافها المستقبلية، وبالتالي لم تجتهد في عمل منظم يقودها إلى استعادة الماضي العظيم .

و تتبدى الرمزية أيضاً في المكان، حيث تظل الصحراء كما هي جرداء تسف رمالها الرياح (الفيف)، كدلالة على انعدام النمو العمراني و الزراعي، إلا في خيال الولي، و في لحظة ما يتعمق الرمز مما يؤدي إلى اندغام الزمان في المكان، فتشتد حيرته و يتساءل" أين هذا الفيف، أين يقع حتى تذهل شمسه، كل هذا الذهول؟ " (الولي الطاهر، 2003 ،18)39. و مع هذه الحيرة في كنه المكان و موضعه، تتكاثف في الفيف الأزمنة التي تمتد قروناً، " تجوب الفيف هذا مئات السنين فلا تعثرعلى طريقك و يوم تعثرعليه تبدأ من البداية"(الولي الطاهر،2003، 84)40.

و برمزية مفرطة يرى الولي الطاهر انه موهوب لنصرة الدين و إقامته، وهذا شأن الجماعات التي ينذر أفرادها أنفسهم لخدمة الدين، والولي يعلم أن ما أنيط به من مهام يستوجب العلم بالدين، و الذكرى الدائمة، و سلامة

القلب، فيدعو بهذا " لقد وهبتني لنصرة دينك، و وهبتني كرامتك فلا تنسى ما أقرأتنيه، ولا تجعل الوباء يصل لا إلى قلبي و لا إلى مخي" (الولي الطاهر،2003 ،58)41، و يتضح في دعاء الولي الطاهر المزج بين العلم الظاهر الناتج عن التعلم والقراءة، وبين العلم اللدني (الذي يأتي لصاحبه هبة من الله بغير تكلف منه) والذي يتصف به المتصوفة، و يبلغ عند بعضهم مرحلة الإتيان بالكرامات، و الولي الطاهر يعرف في نفسه هذه القدرة، فيقر بها في دعائه السابق الدقيق البليغ،حيث استعمل لفظة (وهبتني) في وظيفتين مختلفين، في أولاهما يضع الولي نفسه في موضع (المفعول به، إذ أن الله قد أعطى ذُصْوةُ الدين الولَي الطاهر لتحقيقها) و في الثانية نجد (أن الكرامة قد مُنِحَتْ للولي الطاهر، فهو صاحبها) و مع الرمزية و المظهر الصوفي، فأن الولى الطاهر شخصية تعبر في نهاية الأمر عن فكر وأيديولوجية كاتبها الذي اتخذها أداة لتوصيل أفكاره لا غير ، هذا إذا افترضنا أنها شخصية.

نلحظ أن وطار لم يسم بطل روايته، مكتفياً بوصفه بالولاية و الطهر على مدار عمله الروائي، إيغالاً في الإيهام بولايته و طهره، مع ما يخالف ذلك في بعض أجزاء الرواية حتى يتقبل المتلقي المبالغات المتصلة بحالات الشطح عنده .

مظهر الولي الطاهر– حالاته– :

لا أقصد بالمظهر هنا الشكل الخارجي للشخصية الروائية– على أهميته –لكن وطار لم يتوقف عنده كثيراً في هذه الرواية، ربما لرمزيتها؛ أو ربما لأنه أراد أن يقول بأن الجسم و المظهر الخارجي ليسا حقيقة الإنسان ، قال الولي في عبارة ذات بعد رمزي يشير إلى ما تبقى من شخصية المسلم" أما جسمي و مظهري الخارجي فلم يبق منه سوى شبح يطل في المسلسلات و الأفلام، و بعض سكان الفلوات"(الولي الطاهر، 2003،53)42.

و لم يكن بإمكانه أن يهمل الشكل الخارجي للشخصية إهمالاً تاماً، إذ أن القصاص الجزائريون جميعهم يعنون به، فهم مع عنايتهم بالتحليل النفسي الدقيق لشخصياتهم يهتمون، "بوصف الشكل الظاهري للأنسان، و معظم القصاص يجيدون هذا الوصف، و يكادون يهتمون بنفس الملامح و الأعضاء للشخصية "(مصايف، محمد، النثر الجزائري، 1983،62)43 ، و في هذا دلالة على جدوى الشكل الخارجي و أهميته في إيجاد إلفة بين الشخصية الروائية و المتلقي، إذ يعين الشكل الخارجي القارئ على استبطان الأفعال الجسدية التي يحتمل أن تصدرعن الشخصية الروائية عبر مسارات النص الروائي، لذا لجأ الكاتب إلى طريقة الوصف الخارجي لشخصية الولي الطاهر مرتين من خلال ما رؤية الفتاة الزائدة، و لكن في هيئتين تختلفان قليلاً، كان في الأولى " أسمر اللون، مستطيل الوجه، مقوس الأنف، مكتنز الشفتين، كث الحاجبين، ماضي العينين أكحلهما، لحيته يتراوح لونها بين حمرة و سواد، عريض المنكبين، ينسدل على كتفيه شعر رأسه الأسود الغزير، طويل مستقيم القوام"(الولي الطاهر،2003 ،66)44 ، أما بلارة فقد بدى لها "شاباً يافعاً، على رأسه شماغ أبيض و عقال أسود، لحيته تتحدر من اليمين كراء، و من اليسار كراء أيضاً لكنها مقلوبة، الراءان يلتقيان عند نقطة كبيرة في حجم الذقن، أنفه معقوف، و حاجباه كعينيه يشعان بالسواد، عليه بذلة أفرنجية داكنة اللون، و في قدميه حذاء يشع بالسواد بدوره " (الولي الطاهر،2003 ،79)45، و نلحظ أن الكاتب يريد الهروب من تفاصيل الصورة الأخيرة، فصدرها بقوله (فبان لها) مما يدل على أن هذا ما تريد هي رؤيته، و ليس الحقيقة، فالحقيقة هي الصورة الأولى، و الصورة التي بانت لبلارة هي صورة المجاهدين العرب الذين انتشروا في الحقبة التي تعالجها الرواية في كثير من البقاع.

أهم مظاهر الحضور الصوفي للشخصية في الكتابة الروائية– و التي استخدمها الكاتب في هذه الرواية– هي ما ينتاب الشخصية الصوفية من حالات الجذب والشطح المتعارف عليها عند المتصوفة.و بطلنا يصدق عليه هذا، تنتابه كثيراً هذه الحالات ، و هو

لم يفقد مقامه الزكي، ويطوف باحثاً عنه؛ إلا نتيجة لإحدى هذه الجالات "استيقظ الولي الطاهر بعد وقت لا أحد يعلم مداه، ليجد نفسه تحت جدارالقصر، التفت يميناً و شمالاً، فلم يقابله إلا الفيف، والأتان التي كانت أمامه..."(الولي الطاهر، 2003 ،87)46. وفي أخرى يقول"أخذته رعشة، واعترته حمى، وداهمته غمى، فكبر وشمرعن ذراعيه، وارتمى يخوض أوار مجزرة ملتهبة "(الولي الطاهر،2003 ،89)47 و تكرر مثل هذا في الرواية كثيراً.

و الولي الطاهر يدرك أنه يدخل في هذه الحالات، وأنه يرى فيها ما لا يمكن أن يراه في غيرها، " تذكر القصور الثلاثة الأخرى، فتساءل عن مصيرها، وعما سيفعله بها بعد أن يحرر المقام ... أدار رأسه فلم يقابله سوى الفيف...بحث عن باقي القصور فلم يعثر لها على أثر، لعلني كنت في حالة ما "(الولي الطاهر،2003 ،114)48 . فنلحظ أنه لا يغالط نفسه و لا يحاول أن يتأكد مما رأى، لأنه واثق من صدق ما رآه في الحالتين، الراهنة التي لا قصور و لا مبان فيها؛ و السابقة التي فيها ثلاثة قصور، و طالما أنه الآن في حالة إنسية طبيعية، فلا شك أن ما رآه كان ضمن حالة صوفية انجلت الآن .

و أحياناً تتعمق الحالة عند الولي الطاهر فيعيشها مزدوجة، بمعنى أنه تنتابه حالة انجذاب صوفي يدخلها و يعيشها؛ وفي أثنائها– قبل الخروج منها– تنتابه حالة ثانية، فيدخل في الثانية، قبل أن يخرج من الأولى، و يعود لحالته الإنسية الطبعية ، قال للعضباء بعد ان اكتشف أنها بلارة" ما كنت أعلم يا حبيبتي، آه كم عذبتك و كم تعذبت، لقد كانت ال" حالة" " حالتين" فسبحانك ربي"(الولي الطاهر،2003 ،114)49 ، و هنا كما السابق؛ يسقط الولي كل أفعاله على الحالات، و لا يلوم نفسه على ما كان منها ، فالحالات وضع أو ظرف خارج عن إرادته .

و نلحظ أن كل أحداث الرواية– عدا ركوب العضباء، و صلاة ركيعات التنفل، و الاغتسال في البركة– كل الأحداث عدا هذه، قد وقعت إبان الحالات التي تنتاب الولي، و الأحداث التي لم تجر والولي الطاهر في(الحالة) نجده لا يستحضرها إلا وهو في(الحالة)،" لاحظ الشيخ ازروراقاً يكسو لون الولي الطاهر، فأدرك أنه في حالة إنسية صاحية، قد تتدرج إلى حالة غضب صوفي، لا تعلم عقباه، لقد هدّ التعب مولانا البارحة، وكان المفروض أن يصعد إلى خلوته، يستريح بالذكر والصلاة، يعسر على المرء أن يعيش الحالة في الحالة و في الصحو"(الولي الطاهر،2003 ،75،76)50، و هكذا كل المحيطين بالولي يعلمون أنه يعيش الحالة، و نجدهم يخافون عليه من أن يعيشها في الصحو كما يعيشها في الحالة.

و قد أفاد وطار من الحالات التي تنتاب الولي، بتوظيفها في التداخل الزماني والمكاني في الرواية، "وجد نفسه عرض جبال لا يعرفها، تتخللها وديان غزيرة المياه، قوية السيلان، وسط قوم على رؤوسهم قلنسوات من صوف مزركش..." (الولي الطاهر،2003 ،29)51 كان هذا بعد أن سقط يتخبط مصروعاً عند أرجل العضباء مرفوع السبابة. و في مرة أخرى؛ نراه في حلقة الذكر، عندما أخذ يهفو لحبيبه يأخذه حيث يشاء، فوجدناه يتخذ الهفو مطية تنقله إلى القرن الأول الهجري ليشارك في حروب الردة جندياً في صفوف المسلمين" كانوا قد دخلوا مراراً، و لما أخلينا معسكرنا حاول المشركون حمل مُجّاعة، فلا " يستطيعون لما فيه من الحديد، ولأن خيولنا لا تزال تناوشهم، فلما رجعنا و وثبنا عليه لقتله، هاتفين:اقتلوا عدو الله،..." (الولي الطاهر،2003 ،39)52. وفي موقف ثالث يقول الراوي:"أرغى الولي الطاهرو أزبد، جحظت عيناه، ازرورق لونه، ارتفعت العمامة من على رأسه مقدار ذراع، انتصب شعر رأسه الكث كشوك قنفذ، تقلصت عضلاته، و تخشبت أصابع يديه، وهتف:...ثم هوى، القاهرة، القاهرة المعزية، اختفت منها العمارات و الحارات... تحولت إلى فسطاط كبير ..."(الولي الطاهر،2003 ،49،50) 53 .

و نضيف على هذا أن مظهر الولي الطاهر و حالاته إبان تطوافه بين القصور بحثاً عن المقام – والشمس في وسط السماء ثابتة ذاهلة – فيه إيحاءات دلالية على النور والعلم و المعرفة، بينما في تخبطه وحيرته– مع توافر الأدوات المساعدة– فيه دلالة على العجز وعدم الاستفادة من المتاح، فالولي في هذا الموقف متناقض؛ مالك و محتاج، قادر و عاجز، قوي و ضعيف!، مما يجعل منه صورة رمزية للأمة الإسلامية، التي تركت المصداقية في التزامها العقدي، مكتفية بالقشور، وساءت أفعال قادتها، و تخبطوا عاجزين عن البت في القضايا المصيرية، و أهملوا الروية والمشورة، واستهانوا بدماء البشر فقتلوا من عارضهم، ونسيت الأمة الصراع مع الأعداء الحقيقين، مكتفية بالمشكلات الداخلية، مستخدمة قدرات حربية هائلة في غير مكانها– تنقل الولي من مكان لآخر– ودافعي لهذا الافتراض أن الحروب في الرواية دارت في مناطق عديدة من العالم الإسلامي كما دارت في حقب مختلفة، منها على سبيل المثال؛ حروب الشيخ محمد بن عبد الوهاب في شبه الجزيرة العربية منطلقاً من الدرعية وعيينة و الأحساء(الولي الطاهر،2003، 61)54 ، و حروب الأفغان " يرتدون جلابيب رمادية، تعلوها طبقة خفيفة من تراب، عليها معاطف إفرنجية مشدودة باحزمة "(الولي الطاهر،2003، 29)55، و مجازر الجزائر العاصمة، و قتل المصلين في مسجد الخليل، وذكر بعض ما جرى في القاهرة مسمياً إياها باسمها، و الإشارات المقتضبة لبعض ما حدث في مناطق أخرى من العالم الإسلامي، ترفع أنظمتها السياسية شعار الدين، مثل السودان حيث ذكر ضرب أمريكا لمصنع الشفاء، و إيران التي تذكر منها صورة الخميني، ثم عاد لما يدور في الجزائر(**الرواية ص121– 122**)، قبل أن يرصد اسماء كابول و الشبشان و البوسنة و الهرسك و كوسوفو (الولي الطاهر،2003 ، 56(133 .

و يمكن– بناء على كلمة المؤلف– أن يكون الولي الطاهررمزاً للجبهة الإسلامية في الجزائر، فيكون ضوء الشمس دلالة على العلم و المعرفة بالشريعة الإسلامية، لكن عدم الاستفادة من المعرفة كان سبباً للتخبط، خاصة و أن كثيراً من الجزائريين يتهم الجبهة الإسلامية بالجهل بالاحكام الشرعية، وعدم الاجتهاد في مسائل الدين مما جعلها تتخبط في وهم الحياة ودهاليز السياسة، و في هذا تبريرلسقوط بعض التنظيمات الإسلامية الجزائرية في الفتنة و القتل، وعدم تفريقها بين الحق والباطل؛ على نبل مقاصدها، و هكذا الولي الطاهر مع حسن نواياه لا يحسن الاستفادة من هبات الله .

و اياً كانت رمزية الولي الطاهر فقد كان من بداية الرواية إلى نهايتها يعاني من شدة حرارة الشمس في قلب الصحراء، و هي دلالة على المعاناة، و سبب من اسباب التأزم النفسي، و عائق عن الإنتاج ناهيك بالإبداع، كما أنها تعبيرعن ازمة المجتمعات الإسلامية كلها، و التي يمثلها قوله " لقد امتلأ مسجد خليل الله بدم عباد الله باسم الله "(الولي الطاهر،2003، 119)57 .

التحول في شخصية الولي الطاهر:

أعني بالتحول الانتقال، و هو أمر طبعي في الشخصية الروائية التي هي كائن علائقي، تتحدد ملامحه و هويته من خلال تطور الخطاب السردي، بحسب نظم و مجريات القص، و تطور الأحداث و نمو الشخصيات، علماً بأن كل تحول يطرأ على الشخصية الروائية يكون الكاتب قد فكر فيه و قصد إليه مسبقاً، و يتجلى التحول في مظهر و سمت الشخصية الروائية من خلال تداخل الأزمنة و الأمكنة مع الأحداث، مما يجعل للتحول شكلاً طبيعياً و متوقعاً .

و التحول في شخصية الولي الطاهر أقصد به انتقاله من حالة الاستقرار المفترضة سابقاً في مقامه، و انصرافه إلى إدارته شئون المؤمنين الفارين بدينهم، و تعليمهم و حمايتهم ورعايتهم" لقد كلفني الله برعايتكن، فيجب أن أعلم بكل صغيرة أو كبيرة في حياتكن بالمقام الزكي"(الولي الطاهر،2003، 65)58 ، و هنا للولي دور يتمثل في رعاية الآخرين، و هو من الأدوار الاجتماعية التي يتطلب كفاية و عدلاً ، لا يتناسبان مع حالتي الحيرة و الاضطراب، و ما آل إليه أمره من تيه و انعدام ذاكرة ، فكأنه صار نقيض ما كانه، نسي ما قرأه، يبحث عما لا يعلمه، متنقلاً بين ساحات معارك مفتوحة على كل الأزمنة و الأمكنة، يقاتل من يعرف و من لا يعرف، بسبب ما لا يعرف، ينتهي من معركة ناصر فيها بعض الجيوش لينقلب عليهم، " ما الداعي إلى نصرة هؤلاء وحدهم ؟ قال الولي الطاهر في نفسه، و فوجيء الأعداء ا لُمكّرون، بشاب... ينتصب حاملاً مدفعاً رشاشاً، يصب جام حقده على الذين كان واحداً منهم" (الولي الطاهر،2003، 31)59 .

و التحول في شخصية الولي الطاهر ناجم – في ظاهره– عن حدث محدد هو تهديد بلارة، بعد أن حذرته صراحة من سفك دمها، متوعدة إياه –إن فعل– بضياع مخزون رأسه، و ببلوى خوض الحروب بلا تمييز، و حزالرؤوس، و خنق الأطفال و العجائز و العجزة، و حرق الأحياء. (الولي الطاهر،2003، 84، 85)60 ، و الحقيقة أن تحوله مرتبط ببلارة حقاً، لكن ليس بالموقف سالف الذكر، فبلارة هي البنت الزائدة على المأتين، وهي سبب الفتنة في المقام بأسره، و هي من زارت الذكور في أنصاف الليالي، و طلبت إلى كل منهم أن يخطبها من الولي الطاهر، وهي التي أوحت إليهم بأن يكونوا مالكاً بن نويرة، و أوحت للإناث بأن يكن أم متمم، و كان ذلك سبب تحقيق الولي مع الإناث، وسبب حواره معها، و محاولتها إغوائه، و بلارة هي الفتنة الأمازغية، و قد رمز بها للجزائر.

جعل وطار بلارة تتولى جانباً مهماً من الفكرة الصوفية التي قامت عليها الرواية، فهي التي عرضت على الولي فكرة الحلول والاتحاد حسب المفهوم الصوفي، و لكن بالمعنى الجسدي "أريد أن أعيش معك حالة، وأن تمنحني ولداً يكون كل الناس...نعيد حكاية أمنا حواءو أبينا آدم " (الولي الطاهر،2003، 78،77)61، لكن الولي لم يطعها و لم يتفاعل مع عرضها، إذ كان يظنها جنية، يسعى للتخلص منها، فتحذره من سفك دمها، لكنه يتجاهل تحذيراتها المتكررة، ويمد يده فينزع قرطيها، ومعهما بعض لحم أذنيها، ويسيل دمها، فتختفي في مشهد خيالي بحت، يدخل الولي الطاهر بعده في غيبوبة؛ يرى فيها كل ما توعدته به بلارة، و لما يستفيق يجدها إلى جانبه و قد تحولت إلى أتان مبتورة أطراف الأذنين،هي العضباء دابته التي يمتطيها باحثاً عنها و عما كانه .

و بلارة التي حولت الولي الطاهر مما كان عليه إلى ما صارإليه؛ هي امرأة حقيقية معروفة في تاريخ شمال إفريقيا، تسمى بلارة بنت تميم بن المعز، إحدى أميرات الدولة الزيرية الحمادية، وهي من النساء اللائي تفخر بهن المنطقة، لمكانتها و رجاحة عقلها، إذ كانت من ربات العقل والراي وعلو الهمة، ولدت بالمهدية عاصمة آبائها، عني والدها بتربيتها فرباها تربية قوامها العلم والدين، لكن وطار أسقط عنها المكارم و أسقط عليها سمت النساء المصابات بوباء مسلمي هذا العصر، فلم يتبق من بلارة التاريخية غير التاريخ، و ذلك حين جعلها تحاول إغوء الولي الطاهر، راغبة في انجاب ولد منه، عرفته بنفسها قائلة: " بلارة بنت الملك تميم بن المعز، زوجة الناصر بن علّناس بن حماد، سرت إليه في عسكر من المهدية إلى قلعة بني حماد ... أمهرني الناصر بأربعين ألف دينار، أخذ منها أبي ديناراً واحداً ...ابتنى لي قصراً منيفاً و سماه باسمي ... قبلت عن طيب خاطر الزواج من الناصر... لأقي قومي شر الحرب و ويلاتها "(الولي الطاهر،2003، 83)62، هذه بلارة التاريخية، الأميرة

راجحة العقل، التي تفدي قومها، وتحميهم بنفسها، أما التي أتت للولي الطاهر فأخرى" كانت مستغرقة تعلك كالنعجة ما في فمها، وتلقي بين الحين والآخر قطعة من ثيابها..."(الولي الطاهر،2003، 78)63 .

و الكاتب يتخذ من بلارة رمزاً للسكان الأصليين في الجزائر" بلارة الفتنة الأمازيغية "(الولي الطاهر،2003، 109)64، ومن ثم اتخذها رمزاً للعلاقة بين السكان والفاتحين المسلمين العرب، فالجزائريون– من خلال رمزية الحوار بين بلارة و الولي الطاهر– اختاروا الإسلام عن قناعة و رغبة حقيقية، وانصهروا في العرب الفاتحين، فما عاد الجزائري أمازيغي أو عربي، بل جزائري مسلم .

و التحول في الولي بعد لقاء بلارة هو تعبير عن الحلم و الرغبة الجزائر الجماعية في تغيير الواقع والتقدم و الاستقرار، وايقاظ الضمير الجماعي حتى يتوقف نزيف الدماء بوعي و قناعة من جميع الأطراف، علماً بأن بعضهم– لجهله أو قصور نظره– سيضيع الفرصة اليوم، ثم يندم عليها و لات ساعة مندم .

و عن طريق التحول في الشخصية استطاع الكاتب بعبقرية أن يعرض قضيته، وذلك بإضفاء المسحة الخيالية على الفكرة الرئيسة، والتلاعب بالمعارف الغزيرة في الفكر والأدب و السياسة و التاريخ التي ضمنها عمله، دافعاً بمتلقيه إلى البحث عن مراميه، و ربط المعارف المجردة بالواقع السياسي المعيش .

الرمز السياسي و الاجتماعي شخصية الولي الطاهر:

لحذق الطاهروطار نجده يتلاعب على شخصية" الولي الطاهر" فيجعلها قادرة على استيعاب حركة الرواية بجميع متناقضاتها؛ فهو كما يصف نفسه : " أنا هنا صاحب المقام الزكي، وسيد هذه الفيافي، وحامي الأمة من الوباء" (الولي الطاهر،2003، 64)65 ، و هو في الوقت ذاته صانع هذا الوباء، حيث تتهمه الفتاة قائلة:" تقتحم على الواحدة منا فراشها، فتظل تأتيها إلى أن تصرخ بأعلى ما تملك ..."(الولي الطاهر،2003، 67)66 ، و مع دهشته مما سمع فنجده يقول بطريقة لا تخلو من دفاع عن النفس: " سبحان الله العلي العظيم، هل تصدقن أنتن، أنني أتجزأ في الوقت الواحد إلى كل هؤلاء الرجال؟"(الولي الطاهر،2003، 67)67 ، و ترد عليه رداً يثبت منه أن الولي الطاهر– على مكانته – متهم لدى الرأي العام:" لا يمكن أن نشك في كرامة صاحب الكرامات"(الولي الطاهر،2003، 67)68، فنرى أن لولي الطاهر يمثل الخير و الشر في آنٍ واحد معاً .

بعد هذه الجولة داخل وخارج شخصية الولي الطاهر تجدني أميل إلى افتراض أنه ليس شخصاً، بل هو جمعٌ من الناس، أوهمنا الكاتب في عتبة المقدمة بأنه حركة النهضة الإسلامية بكل تجاويفها (الولي الطاهر،2003، 7)69، لكن بعد الدراسة الطويلة المتانية ثبت لديّ أن الولي رمز للأمة العربية الإسلامية في الوقت الحاضر، بواقعها الفكري المضطرب، وواقعها السياسي الممزق، و واقعها العلمي المتدني، وثقافتها و تاريخها العظيمين الذين تقف أمامهما عاجزة عن الإفادة بهما في الحياة المعاصرة ، فهي – لما سبق ذكره – لا تملك خطة واضحة، توظف من خلالها إرثها الثقافي تتناول منه ما تحتاجه، و تترك ما عداه، و الأهم من كل ذلك هو مستقبل هذه الأمة الذي ستعيشه كيفما اتفق، إن لم تضع لها خطة واقعية تسير على هديها .

لم يكن الطاهر وطار في هذه الرواية (الولي الطاهر) يتنبأ، بقدرما كان يرصد الواقع و الوقائع، و هو ما جعل الرواية صدى للخطاب السياسي السائد في حينها، و قد أكسبها الروائي صبغة فنية بهدف خلق بيئة حضارية تتلاءم مع المغزى، محاولاً الكشف عن التفاصيل الداخلية في حياة المجتمع، بحثاً عن آماله و

آلامه ، مما يجعل المقام الزكي الضائع من الولي رمزا للوطن المستقر الآمن الذي ضاع من الطاهر وطار و كل الجزائريين، و هذا يجعل التناص قصدياً أو مباشراً للروائي نفسه مع بطل روايته.

و يتسم الخطاب في هذه الرواية بالوضوح و الصراحة، إذ استفاد الكاتب من كل" الحيل الممكنة عند استخدام الدين لأغراض سياسية، كما توصل إلى أن القناعة الدينية عندما تأخذ امتداداً سياسياً أو القناعة السياسية عندما ترتدي ثوباً دينياً فإن أصحابها يصعب جدا أن يتقبلوا الرأي الآخر، وينتهوا– غالباً – إلى ممارسة العنف، ينتقلون من استعمال المصحف إلى الدنياميت".(مخلوف، 89) **70** ..

"و بما أن اللغة هي الهيكل الذي تشيد من خلاله الرواية، ولا يمكن تجزئتها، كما لا يمكن فصل الزمن عن اللغة لأن الزمن يتخلل الرواية كلها"(مبروك ، مراد عبد الرحمن، العناصر التراثية في الرواية العربية، 217،1991) 71، فإن وطار قد تلاعب بالزمن في هذه الرواية، ومنح شخصيته الصوفية الروائية القدرةعلى اختراق الزمن، ثلاثي الأبعاد؛ الماضي والحاضر والمستقبل، "ستلحقك بلوى خوض غمار الحروب، فتشارك في حروب جرت، وحروب تجري، وحروب ستجري"(الولي الطاهر،2003 ،84،85)72 ، وهنا ينفتح الزمان والمكان لانهائياً أمام البطل، فيتنقل ما بين القرنين الأول والرابع عشرالهجري؛ و ما بينهما، فاعلاً لا يحد فعله زمان، فهو في شبه الجزيرة العربية، يشارك في حروب الردة، كما شارك في حروب محمد بن عبد الوهاب، وهو في الجزائر العاصمة يشارك في مجازرها، و هو في القاهرة يشارك في التفجيرات و الاغتيالات فاشلها و ناجحها، وفي أفغانستان يحارب مع مسعود و طالبان في الميدان ذاته، كما نجده في البوسنة والهرسك، وكوسوفو والشيشان، و يتم ذلك بغير مراعاة للترتيب الزماني، والولي الطاهر في موقف واحد يحادث جمجمة مالك بن نويرة و يقرأ رسائل عبد الله عيسى لحيلح، و بينهما أربعة عشر قرناً .، و ذلك في جزيرة العرب و هذا في الجزائر .

كذلك يخرج الولي الطاهر من قيد المكان، الذي ينفتح فضاؤه شاسعاً أمامه فنجده في اليمامة، والدرعية، و الجزائر العاصمة ،والقاهرة ،و الخليل ، و جبال أفغانستان، و في أماكن أخرى لا نستطيع أن نسميها ربما لأن الحروب فيها لم تقم بعد، كون الولي الطاهر قد حارب في الماضي ، و يحارب في الحاضر، و سيحارب كذلك في المستقبل؛ ما قامت بين المسلمين حرب، و لغة الرواية استطاعت ان تجعل " الزمان و المكان يحملان أبعاداً ماضية و حاضرة ، في آن واحد، فحدث ما يسمى بالتداخل الزماني و المكاني " (مبروك، مراد عبد الرحمن، العناصر التراثية في الرواية العربية، 217)73 .

و تحمل الرواية رؤيا فكرية عميقة، تعبر عن واقع الكاتب المضطرب، الذي تمخضت عنه شخصية بطل الرواية المضطرب غير المتوافق – كثيراً – مع الفضاء الروائي الضبابي، لا مع الكون و لا مع الأشياء، فنراه في كثير من الأحيان يرتقي عبر شطحات الأولياء و المتصوفة، في فترات الغيبوبة التي تنتابه ، و كأن الصوفية قد أصبحت أيديولوجيا تتوخى تخليص البطل من صراعاته و تناقضاته و شقائه، وعدم تكيفه مع محيطه ، فهي الملجأ الآمن الذي يسند إليه رأسه، و يرى العالم من خلاله (إدريس بودبية، الرؤية و البنية في روايات الطاهر وطار، دراسة نقدية، 2000، 218)74 .

وفي أحيان أخرى تبدو سماته مختلفة. وسبب هذا التباين تناقض الشخصية، التي قصد الكاتب أن يعددها، جاعلاً من البطل شخصية متعددة الأبعاد، ضعيفة الإحكام ، مثقلة بأبعاد شخصية الكاتب نفسه، وأبعاد شخصية مالك بن نويرة، مضافاً إليهما الأبعاد الرئيسة لشخصية قائد حربي شرس، يخوض غمار الحروب باعتبارها واجباً لا

مناص من تأديته، و من ثم لا يعنيه من ماتوا فيها، إذا أدى واجبه الشرعي حيالهم المتمثل في دفن جثثهم "وضع الإصبع وراح يكبر، ويتلو الفاتحة..."(الولي الطاهر،2003، 116)75 ، و في اثناء حفره لعمل فتحة في جدار المبنى الذي حسبه مقامه، تظهر له جمجمة و يسمع أنيناً أنين توجع و معاناة، راح يُعري عليها شياً فشيئاً ... استعمل المنقار بينما الأنين يتميز أكثر فأكثر... أدفنها مهما كان الأمر..." (الولي الطاهر،2003، 117)76 .

عمد الكاتب في هذه الرواية إلى إعادة بعث حادثة مقتل مالك بن نويرة على يد خالد بن الوليد رضي الله عنه كما سبقت الإشارة، و بما أن الحادثة مثيرة للجدل، فالكاتب هنا يهدف للجدل من أبواب كثيرة بشأن هذه القضية المتشعبة، منها الجدل الديني والجدل السياسي و الجدل العسكري، و للأخير في هذاالوقت ضرورة أكثر من سابقيه، لأن القيادات العسكرية قد ملأت أرجاء العالم العربي بمبرر و بلا مبرر، فيلزمهم بل يتعين عليهم ألا يتعجلوا في تقتيل أعدائهم ، و أما الجدل السياسي فلأن الساسة تنصلوا عن واجبهم في كبح جماح العسكر التابعين لهم و لغيرهم، فلم يمنعوهم من القتل حفاظاً على هوية المواطن و دمه .

و نلحظ مزج التاريخي بالأسطوري بالصوفي بالآيديولوجي في سمات شخصية البطل، و من ذلك مشهد محادثته لجمجمة مالك بن نويرة، " طرحها أمامه... بلغه أنين أشد قوة من السابق، القى نظرة عليها ، فإذا بها تكتسي لحماً و شعراً كثيفاً تشتعل قيه النار...اقترب من الرأس الذي كان قبل لحظات جمجمة فعل فيها القدم، صلي علّي فإن قتادة لم يفعل، من أنت؟ مالك بن نويرة. المرتد لا يصلى عليه و لا يدفن في مقابرالمسلمين. طبق علّي راي عمر..."(الولي الطاهر،2003، 118)77، حيث نرى التاريخ الإسلامي يتجلى في شخصية مالك بن نويرة، تمازجه الأسطورة في أنين الجمجمة و اكتسائها لحماً و شعراً تشتعل فيه النار، و المبالغة أن الشخص إن كان حياً واشتعلت النار في شعره ما استطاع أن يتحدث، فكيف بجمجمة قضت في الأرض أربعة عشر قرناً؟ لكن كل هذا يحدث للولي الطاهر!! و قد اعتاد وطار – ربما– لضيقه بالحاضر، و رغبته في التغيير اللجوء إلى الأسطورة و العالم الخيالي، و ذلك بمنح أبطاله قدرات تتجاوز الممكن، و تتحقق المراد من تغيير يصل بالجماعات الكادحة إلى أحلامها .

نتائج الدراسة:

1–الشخصية الصوفية قي أدب الطاهر ليست مقصودة لذاتها بل هي رمز للأمة أو فيئة مها .

2–يستقي الروائيون شخصياتهم من الواقع والتاريخ و الأساطير، و يضيفون إليها من خيالهم ثم يوظفونها لخدمة أفكارهم الروائية .

3–لم يسم الكاتب بطله، بل اعتمد على صفتين منحهما إياه هما(الولاية و الطهر) و ذلك بهدف رفع مكانته لدى القارئ.

4– الشخصية الصوفية الروائية عند الطاهر وطار ليست نقية، بل ممتزجة بالتاريخ و الأسطورة.

ثبت المصادر و المراجع :

1/ وطار، الطاهر، الولي الطاهر/ رواية ، منشورات الجمل، كولونيا، المانيا، 2003م. .

2 / ابن منظور،الإمام جمال الدين بن مكرم، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، ط3, 1994 م ، مادة شخص .

3/ شوفلي، جان، التصوف و المتصوفة ، ترجمة عبد القادر قنيني ، الناشر إفريقيا الشرق، المغرب ، 1999 م .

4/ القشيري عبد الكريم،الرسالة القشيرية في علم التصوف، تح معروف زريقو ،علي أبو الخير، دار أبو الخير، ط2، 1995م.

5/ القرآن الكريم .
6/ وهبة ، مجدي ، و المهندس، كامل ، معجم المصطلحات العربية في اللغة و الأدب ، د ت .
7/ نقلاً عن : سماحة ، فريال ، رسم الشخصيات في روايات حنا مينا ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، عمان ، ط1 ، 1999 م .
8/ انظر .هلال / محمد غنيمي ، النقد الأدبي الحديث ، مصر للطباعة و النشر ،1996 م .
9/ ابن هشام .أبو محمد عبد الملك . السيرة النبوية . تحقيق الشيخ أحمد جاد . دار الغد الجديد . المنصورة . ط 1. 2003 م . ج 1 .
10/ الأعرج، واسيني، الطاهر وطار، تجربة الكتابة الواقعية في الجزائر، دراسة نقدية ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م .
11/ انظر/ ايفلين فريد، جورج بارد، نجيب محفوظ والقصة القصيرة ، دار الشروق للنشر والتوزيع –عمان –الأردن، الطبعة الأولى 1988م .
12/ عياش ، يحياوي ، حوار مع الروائي الطاهر وطار، مجلة التبيين، العدد 15،عام 2000م .
13/ مصايف، محمد، النثر الجزائري الحديث ، الشركة الوطنية للتوزيع و النشر، الجزائر، ط1، 1983م .
14/ مبروك ، مراد عبد الرحمن، الدكتور، العناصر التراثية في الرواية العربية في مصر، دار المعارف، ط1 ،1991م
15/ إدريس بوديبة, الرؤية والبنية في روايات الطاهر وطار, دراسة نقدية، الطبعة الأولى، جوان 2000 م,.